

الحلقة (٧)

ذكرنا في اللقاء السابق في الحلقة السادسة كيف أن الإسلام له شخصية مستقلة، ولا ينكر ذلك لأنه هو خاتم الأديان أو إن شئت قل ناسخ الأديان.

وذكرنا عند سبب نزول قوله تعالى ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَىٰ فَأَعْتَزِلُوا النَّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَظْهَرْنَ فَإِذَا تَظَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (٢٢٢)﴾ ولعل تذييل الآية بالتوبة والتطهريشي إلى أن من يأتي المرأة في زمن حيضها في غير المأتي فكأنه لم يتب أو لم ينتمي إلى أولئك التوابين المتطهرين.

فذكرنا في الحلقة السابقة سبب نزول الآية وقلنا إنه لا يُنكر على الإسلام أن يخالف الدين السابق المنسوخ، فاليهود من أمورهم التي يفعلونها مع المرأة زمن الحيض أنهم لا يؤاكلونها ولا يشاربونها، وهذا مثبت في التوراة المحرفة على أنهم يعدون المرأة شيئاً نجساً.

فجاء المسلمون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونه عن ذلك فنزل قوله تعالى ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾.

❁ القراءات في قوله تعالى: ﴿يَظْهَرْنَ﴾:

قوله تعالى ﴿حَتَّىٰ يَظْهَرْنَ﴾ قرأ جمهور القراء (يَظْهَرْنَ) بسكون الطاء وضم الهاء، وقرأ حمزة والكسائي -وإذا قيل الأخوان فهما حمزة والكسائي- قرأ حمزة والكسائي وشعبة -شعبة راوي عن عاصم- عن عاصم الكوفي قرؤوا ﴿يَظْهَرْنَ﴾ بتشديد الطاء والهاء وفتحهما.

يعني يمكننا القول أن قراءة بالتخفيف وقراءة بالثقل، وتوجيه القراءتين أنهما بياناً لغاية الاعتزال فهما دالتان على أن غاية حرمة القربان هي الاغتسال، يعني القراءتان تُشددان على إن الرجل يأتي امرأته إذا اغتسلت، والحافظ ابن حجر العسقلاني في الفتح ذكر أن المراد بالتطهر هنا الاغتسال اتفاقاً أو إجماعاً، وهذا الإجماع قد يرد عليه بعض الإشكال، ولكنه إشكال لفظي، سواء كانت قراءة التثقيل أو التخفيف فالمقصود أن المرأة إذا اغتسلت حلّ ذلك لزوجها.

❁ مفردات الآيات:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾ الحيض: هو مصدر، يقال حاضت المرأة حيضاً ومحاضاً ومحيضاً فهي حائض.

وبعض أهل اللغة يقول أيضاً (حائضة) لكن المشهور الذي عليه الأكثر أن هذه الصفة صفة نسوية، فطالما كذلك فلا تحتاج في معرض التفريق إلى التاء (تاء التأنيث) أو إلى الهمز لأنها من صفات الإناث (مثل الحيض والطلاق والحمل).

إذاً الحيض مصدر، يقال حاضت المرأة حيضاً ومحاضاً ومحيضاً فهي حائض، وحائضة كما يقول الفراء النحوي الكوفي المتوفي سنة ٢٠٧ هـ، يرى أن حائضة واردة في اللغة فأنشد الفراء: كحائضة يزني بها غير طاهر.

يعني كأن الفراء وهو رجل ينتقل بين الأمصار لملاقة وأخذ اللغة من أهلها الأقحاح، فيبدو أنه سمع شاعراً قحاً من الشعراء الذين يُحتج بكلامهم أورد في بيته: كحائضة يزني بها غير طاهر، فدل هذا على أن حائضة واردة في اللغة، ولكن الأكثر على أن حائض تغني عن حائضة لأنها من صفات الإناث، هذا قول الفراء.

جمع امرأة حائض يقال: نساء حيض وحوائض، والحيضة المرة الواحدة، والحيضة بالكسر الاسم، والجمع الحيض، والحيضة أيضاً الخرقعة التي تستفر بها المرأة، وكذلك المحيضة والجمع المحايض. وقيل إن المحيض عبارة عن الزمان، والمكان، وعن الحيض نفسه.

وأصله في الزمان والمكان مجازاً في الحيض، يعني المحيض أصله في الزمان أي المرأة تحيض أياماً معروفة، والحيض يأتي بمكان معروف، ولكن المجاز أيضاً مستعمل، واللغة فيها مجاز وليس هنا مجال طرح هذا الأمر.

وأصل الكلمة من السيلان والانفجار، يقال حاض السيل إذا سال وسار وانفجر، والحيض خلقة في النساء وطبع معتاد معروف منهن، يعني شيئاً كتبه الله عز وجل كما صح في هذا الحديث على بنات آدم، فالمرأة تعتبرها هذه الصفة خلال سنوات معينة من عمرها.

وأجمع العلماء على أن الحائض تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة، فإذا انقطع عنها كان طهرها منه الغسل، وعند البخاري أن امرأة من حاروراء جاءت إلى عائشة رضي الله عنها فقالت: (ما بال الحائض تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة؟ - حاروراء قيل أنه مجمع من الخوارج، قرية قريبة من بغداد - فاستنكرت أمنا عائشة رضي الله عنها (أحرورية أنت؟ كنا نؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة) فهذا محل إجماع بين العلماء.

❁ **واختلف العلماء في مقدار الحيض يعني في كم أقصى حد وأقل حد**

❉ **فقال فقهاء المدينة: إن الحيض لا يكون أكثر من ١٥ يوماً، يعني فقهاء المدينة الذين منهم الإمام مالك رحمه الله يرون أن أكثر الحيض لا يزيد على الخمسة عشر يوماً، فإذا ما زاد فليس بحيض، قد يكون دماً فاسداً أو استحاضة، أو ينظر إلى أي نوع هو، وقد روي عن مالك أنه لا وقت لقليل**

الحيض ولا لكثيره إلا ما يوجد في النساء، وجرت العادة على أن جمهور النساء هو ما ذكرناه أن أكثره ١٥ يوماً.

وقال الشافعي رحمه الله أقل الحيض يوماً وليلة وأكثره ١٥ يوماً، فلعله وافق أهل المدينة في أنهم حددوه بأنه لا يكون أكثر من ١٥ يوماً.

❦ وقال أبو حنيفة وأصحابه -أصحاب الرأي-: أقل الحيض ثلاثة أيام وأكثره ١٠ أيام، ولعل إيراد هذه الأقوال على تنوعها ليؤخذ منها سعة وسماحة الفقه الإسلامي، فنحن لو جاءتنا امرأة وقالت إن الحيض يستمر عندها ٣٠ يوماً، فإذا نزولاً عند المالكية وهو أحد قولي الإمام مالك أن هذا يرجع لطباع النساء، قد يحصل هذا، وإذا جاءت امرأة وقالت والله إن الحيض يستمر عندي يوم، فإذا هذه أمور ترجع لأمر جبلي وأمر بيئي ووراثية وما إلى ذلك.

❧ قوله تعالى ﴿أَذَى﴾: الأذى في الأصل هو الضرر الحاصل، وهو هنا كناية عن الاستقذار، وما يلحق متعاطي الوقت في وقته من الضرر، وكونه يخرج من مخرج البول، ومعروف أن القرآن دائماً لا يخوض في التفاصيل وإنما يشير إشارات بليغات، ولكن كل ما هو مراد موجود في هذه الإشارات، فقال ﴿قُلْ هُوَ أَذَى﴾ أذى من أي ناحية؟ أذى بمعنى أن النفس تستقذره، نعم، وأذى على الصحة، نعم، وأذى على حياة الإنسان، نعم، وأكثر من هذا مجملاً في قوله تعالى ﴿قُلْ هُوَ أَذَى﴾.

❨ قوله تعالى ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾: أصل الاعتزال تجنب الشيء، فتارة يكون في الظاهر كالاعتزال في البدن، وتارة يكون في الباطن كالاعتزال في الاعتقاد.

وفي الآية المراد الجماع، لا المجالسة ولا المؤالفة كما كان اليهود يفعلون، إذاً مادة اعتزل تدل على أن هذا الإنسان تجنب شيئاً وتنحاه، فلدينا في تفسير "دار الله الزمخشري" كان يقول عن نفسه "دار الله المعتزلي" كناية على أنه من أئمة الاعتزال-واصل وأتباعه- فلمهم أن هذا الاعتزال يتصور وجوده في المحسوسات والمعقولات، فقد يكون الإنسان مبطناً شيئاً لا يريد أن يعرفه الناس، وهنا المقصود به العقائد الفاسدة ولا يشعر به أحد، فيكون هذا ممثلاً بالمعتزلة ومدرسة الاعتزال، وفي الآية المراد الجماع ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ أي اعتزلوهن في مسألة المعاشرة الزوجية، لا المؤالفة ولا المجالسة ولا المحادثة، بل إن عائشة رضي الله عنها كانت ترجل رأس رسول الله ﷺ وهي حائض، فإذا لا إشكال، إنما الإشكال في الجماع في الوطء.

❩ قوله تعالى ﴿وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَظْهَرْنَ﴾: يقال لا تقرب بفتح الراء كان معناه لا تلبس بالفعل، وإذا كان بضم الراء كان معناه لا تدن منه، هذا معنى دقيق ذكره ابن العربي في أحكام القرآن نقلاً عن الشاشي، وهذا التفريق دقيق، والقرآن الكريم دائماً يستعمل لا تقربوا.

في قول الله ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزَّانَا﴾ انطلاقاً من هذا التفريق إلى المعاني المتصورة، يعني واحد يذهب مثلاً إلى أماكن يستباح فيها الزنا وهو يقول والله أنا أملك لنفسي وأنا وأنا، ولا يدري المسكين أنه قد

يقع، لأن الشيطان شاطر كما يقولون، والشيطان في هذه العصور الأخيرة ينتقم منا معشر بني آدم الانتقام الأمثل، نسال الله السلامة، فيستطيع أولاً هذا الفضاء الإعلامي الرهيب الذي يجعل الشيء القبيح شيئاً حسناً فتميل له النفس ميلاً عظيماً، فبعد ذلك ييسر الشيطان له شيئاً فشيئاً حتى يوقعه في المنهي، وصدق الله العظيم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ فهو يبدأ معك خطوة خطوة، فهو يزين لك الأمر ابتداءً، ثم يحاربك، وأنت في حرب معه، وهذه الحرب معلنة من طرف واحد الذي هو أنت، لأن الشيطان لا يرى، فإن استطعت بعد عون الله عز وجل لك الانتصار في هذه المعركة فإذا رأيت الأمر على حقيقته. وأما الصورة التي زُيّنت وفعل بها ما فعل في النهاية لولا هذه الرتوش أو هذه الزخارف أو تلك الزينة، فالشيء هذا مثله مثل غيره.

ويقولون للدلالة على أن الشيطان يسلك مع الإنسان مسالك من الخبث والدهاء والشر: كان الخوارزمي وهو من دهاة العربية من القرن السادس الهجري كان تلميذاً لبدیع الزمان الهمداني صاحب المقامات، والهمداني كبر في السن وكان عند أحد الخلفاء، فالخليفة رأى الخوارزمي ذكي وداهية وفلته والشيخ الهمداني نظراً للسن، المعلومات لم تسعفه كالماضي، فطرح في مسألة فاستطاع الخوارزمي أن يهزم شيخه أمام الخليفة، فجاءت في نفس بديع الزمان الهمداني قال كيف؟ إنه درس علي، فقصي على الشيخ، فأعلم الخوارزمي فقال (قد كنت امرئاً من جند إبليس فارتقى بي الحال حتى صار إبليس من جندي) فبعض الناس الشيطان يأخذه رويداً رويداً إلى إن نسأل الله السلامة يجد نفسه أمام الطوام.

فإذاً عليه أن يتمثل القرآن الكريم ﴿لَا تَقْرُبُوا﴾ إذا قيل لا تقرب يعني لا تلبس بالفعل، وإذا كان بضم الرأي: لا تدنو منه، والمعنيان متصوران في مناهي القرآن الكريم. وأصل المادة ﴿لَا تَقْرُبُوا﴾ الدنو، وهو ضد البعد، يعني لا تقربوا القرب ضد البعد، فإذاً على الإنسان أن لا يدنو إن كان يخشى على نفسه من وقوع المحذور فعليه حتى في النوم أن يجتنب البيات معها، لأنه قد لا يضمن نفسه.

❁ الأحكام التي تؤخذ من الآية:

☞ قوله تعالى ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ أي في زمن الحيض: كلمة المحيض كلمة متصورة في زمن الحيض، فإذا قيل مثلاً أسبوع أو ١٥ يوم أو ثلاثة أيام زمن المحيض، فإن حملت المحيض على المصدر: حاض يحيض، المحيض إن حمل على المصدر يكون في زمن الحيض، أو في محل الحيض إن حملته على الاسم، هذا في محل الحيض، ومقصود هذا النهي ترك المجامعة.

☜ وقد اختلف العلماء في مباشرة الحائض وما يستباح منها

* فذهب جمهور العلماء إلى أن له منها ما فوق المئزر أو المحل، هذا كله هروباً من الوقوع في المحذور، فيجوز للرجل أن يستمتع بزوجته، فيستباح له منها ما فوق المئزر، هذا جائز وإن كان الرجل كما قلنا لا يملك نفسه فالبعد غنيمّة، فذهب جمهور العلماء إلى أن له منها ما فوق المئزر، هذا هو قول الجمهور، وهناك أقوال أخرى في تحديد ما يحل للرجل من امرأته زمن الحيض.

❦ قوله تعالى ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾: يعني بالماء، وذهب جمهور العلماء أن إذا تطهرن أي اغتسلن بالماء، وأن الطهر الذي يُجَلّ جماع الحائض التي يذهب عنها الدم هو تطهرها بالماء، والآية واضحة في هذا، فلا يتصور إلا في النادر أن تتطهر الحائض إلا بالماء، وهذا أظن أنه أمر جبلي، فتذهب ما قد يكون وسخ أو ما شابه بالماء، وهذا هو ما عليه الجمهور.